مَسْخَبَة

حكاية عبد اللّطيف بن يوسف البغداديّ

أيمن العتوم

مَسْخَبَة

حكاية عبد اللّطيف بن يوسف البغداديّ

المخطوطة الثّانية

رواية

2020

قبل البداية

قبل أنْ تقرأ هذا المخطوط، أريدُ أنْ أقولَ شيئًا، أنا اسمي عبد اللّطيف بن يوسف البغداديّ، تتلمذتُ لأساتيذ كبار، وارتحلتُ في بلادٍ كثيرة، وجُبتُ آفاقًا واسِعة، وعايشتُ أحداثًا جِسامًا، هذا المخطوط الّذي لم يُنسَخ لأنّني لم أدفعْه إلى أيّ دارٍ من دار الورّاقين، وبقي معي إلى آخر تطوافي الطّويل ورجوعي إلى بغداد، سأعهد به إلى من بقي من أقاربي، أبي وأمّي – عليهما شآبيب الرّحمة – ماتا منذ زمنٍ طويل، ما أريدُ قولَه أنّ مَنْ سيطّلع على هذا المخطوط بعد رحيلي عن هذه الفانية سيتوقّف كثيرًا عند بعضِ صفحاته، وسيعتريه الذّهول مِمّا يقرأ، بعضُ المشاهد لا تُصدّق، بعضُها لا يقع حتّى في الخيال، ولكنْ حسبي أنّني نقلتُ بأمانةٍ كلّ ما رأيتُه أو سمعتُه من ثِقاتٍ، وستأتي كتُبٌ تهتمّ بالتّاريخ تُصدّق ما أقول وتُثنّي على ما ذكرتُ. كلّ ما يهمّني ألاّ تموتَ المخطوطة معي، وأنْ يأتي زمنٌ يقرأ فيه النّاس ما عايشَتْه بلادُنا من أهوالٍ وفظائع، لم تكنْ لتتمّ لولا أنّ الله أرادَ لها أنْ تتمّ.

وبعدُ؛ فأنا اليوم محموم، مُعتلّ الجسم، ضعيف القُوّة، خائر العزم، قد وهن العظمُ منّي واشتعل الرأس شيبًا، أصابني ما رأيتُ من محنٍ بِما أُلتُ إليه من عِلّة دائمة، تلازمني في صحوي ومنامي، وفي حلّي وارتِحالي؛ فلا أنا حَيٌّ ولا أنا ميّت!

وأنتَ يا مَنْ سيقع هذا المخطوط بين يديه، ربّما سأكونُ قد صِرتُ تحتَ الثّرى وأنتَ تقرأ هذه الكلمات، كلّ ما أرجوه ألاّ تنساني من دعوةٍ صالحة إذا مررتَ بهذه السّطور.

عبد اللّطيف بن يوسف البغدادي

على مشارفِ بغداد

عام 629 من الهجرة.

القِسم الأوّل
بغداد ... النّشأة والحلم

فِــدًى لــكِ يــا بغــدادُ كُــلُّ قَبيلــةٍ
مِــنَ الأرضِ حتّــى خُطّتــي ودِيارِيــا
فقــد طُفــتُ في شَرقِ الــبِلادِ وغَرْبِهــا
وَسَــيَّرْتُ رَحْــلي بينَهــا ورِكابِيــا
فلــمْ أرَ فيهــا مِثْــلَ بغــدادَ منــزلاً
ولم أرَ فيهــا مثــلَ دِجْلــةَ وادِيــا
ولا مثــلَ أهليهــا أرَقَّ شــمائِلاً
وأعــذبَ ألفاظًــا وأحــلى مَعانِيــا
وكــم قائــلٍ لــو كــان وُدُّكَ صــادِقًا
لبغــدادَ، لم ترحــلْ. فكــانَ جوابِيــا:
يُقــيمُ الرّجــالُ الأغنيــاءُ بأرضِــهمْ
وتَرمِــي النّــوى بــالمُقْتِرينَ المَرامِيــا

(محمد بن عليّ الهَمَدانيّ)

(1)
ما رأيتَ الدُّنيا

ضربَ شُعاع الشّمس المُتسلّل من النّافذة وجهي، رِجلي بارِدة، طرف السّرير بارد، واللّيلة الرّبيعيّة الفائتة باردة، أشعرُ أنّ يدًا خشنة تقرصُ أذني، أخرى تُمسِكُ بعودٍ رفيع، وتضعه في أنفي... أفقتُ مدهوشًا، بحثتُ عن الدّفء. تمطّيتُ كقطّة، بانَ وسطي النّحيل، نظرتُ إلى الحائط، كان الضّحى قد حلّ. لطمتُ جبهتي بكفّي، وصحت: "يا ولد... لقد تأخّرت... سيلعنك الشّيخ". نهضتُ كالملدوغ، جريتُ إلى الحمّام، غسلتُ وجهي، ورجّلتُ شَعري، ثُمّ خرجتُ، فلبستُ الصدّاريّة، والجُبّة، أبي يُصرّ على ذلك مع أنّها أطول مِنّي، ووضعتُ العِمامة الصّغيرة على رأسي، وأصلحتُ هِندامي، ولبستُ نعلي المخصوفة، وركضتُ في دربِ الفالوذج وأنا أُجرّر النّعل الواسع: "يجب أنْ ألحقَ بالشّيخ قبل أنْ يُغادر المسجد". وصلتُ وأنا ألهث: "يا سيّدي..." وانحنيتُ وهممتُ أن أعتذر عندما رفع الشّيخ كَفّه: "لا تبدأ... لقد تأخرّت... اغرُبْ عن وجهي... لا أريدُ أنْ أراكَ بعدَ اليوم". كانتْ صفعة، صفعة حارّة. سيُخبر أبي بلا شكّ، جثوتُ على رُكبتَي، وتوسّلت، صرخَ غاضِبًا: "قلتُ لكَ لا تبدأ... لا وقتَ لديّ للمُهمِلين...". ظَلِلْتُ جامِدًا على رُكبتَيّ كأنّني صخرة، خافِضًا رأسي، ومُسدِلاً ذِراعَيّ الرّفيعتَين على جانبَيّ، وصامِتًا صمتَ القبور. مرّتْ لحظاتٌ بطيئة، رفع الشّيخ الثّمانينيّ رأسَه من جديد، وهتفَ: " ما زلتَ هنا؟ ألم أقلْ لكَ...". وخضعتُ من جديد: "سيّدي..". وقاطَعني: "أتيتُ من الرّيّ وتعلّمتُ في بغداد، وحججْتُ عشرينَ

مرّة، وطفتُ البِلاد وصنّفتُ الكتب، وأنا الآن قد جاوزتُ الثّمانين، وبيني وبين القبر مسافةُ درسٍ أو صلاة، فما الّذي يدفعني أنْ أحتمل صبيًّا مثلك...؟". وبقيتُ صامِتًا، وإنْ راحتْ رُكبتاي تهتزّان قليلاً، وجسدي يرتعشُ كذبابة. وتابع الشّيخ (أبو زرعة) مُهتاجًا: "لقد حضر مجلسي ابن الجوزيّ، وأحمد بن صالح الجِيليّ، وأبو محمّد بن قُدامة وكِبار المُحدِّثين، فما تأخّروا عن الدّرس لحظة، وما تغيّبوا عنه يومًا، أيّها الصّبي الأرعن... وأنتَ تأتيني بعد أنْ ترتفع الشّمس، آه... لولا أنّ أباك..". ورفعتُ رأسي قليلاً، ونظرتُ إليه من زاوية عيني: "نعم يا سيّدي بحُرمةِ أبي عندك". وخبطَ بباطن كَفَّيه ظاهر فخذَيه، وتأوّه: "آه لولا أنّ أباك أوصاني بك، وهو خيرُ صديقٍ وخير تلميذ، وله عليّ أيادٍ، لَعَلوتُك بنعلي أيّها الولد...". "نعم ياسيّدي، هذا عنقي، اعلُه بالنعل... اصفعْني بِعصاك، الطمْني على وجهي، جُرّني بسلسلةِ المسجد في الشّارع... افعلْ أيّ شيءٍ إلاّ أنْ تطردني... إنّني أعوّل على درسِكَ كثيرًا". أخذ الشّيخ (أبو زرعة) نَفَسًا طويلاً، وأطلق زفرةً حارّة، قبل أنْ تهدأ ثائرتُه قليلاً، ويسأل: "فلماذا تأخّرت يا بُنيّ؟". "إنّه الشّيطان". "وماذا فعل بك الشّيطان؟". "لقد بال في أذنَيّ". ضَحِكَ الشّيخ ضحكةً خفيفةً، ومدّ يده فقرصَ أذني: "بدأنا يا عبد اللّطيف...". "احذر يا سيّدي، إنّ بَوْل الشّيطان ما زال في أُذني... أخافَ على يدك أنْ تتنجّس.." وبسطَ الشّيخ هذه المرّة ضحكته، وأفلتَ أذني الّتي احمرّتْ، وقال: "لن أقبلكَ في دَرْسي إنْ عُدت لمثل هذا". ووقفتُ مُبتهِجًا على قدَمَي، تفترّ شفتاي عن أسنانٍ صفراءَ صغيرةٍ مُدبّبة، وهتفتُ: "لن أتأخّر لحظة... أعدكَ يا شيخي".

إنّها بغداد، النّشأة والحلم، المدينة الّتي ظلّتْ ساحرةً رغم ما أصابَها من نكباتٍ، والعَروس الّتي ظلّتْ تفتح ذراعيها للعُشّاق رغم أنّهم لم يعودوا موجودين، والفِكرة الّتي كانتْ تبحثُ عن الحقيقة، فكرةٌ نبتت في رأسِ مجنونٍ،

يبحثُ عن مجدٍ هاربٍ، ذاتَ انتِصارٍ دمويّ، فأوقعها خطوطًا على الرّقوق، وقال لها كوني فكانتْ.

آه يا بغداد، كم عليّ أنْ ركض في حواريك وأزقّتك القديمة من أجل أنْ أجدني، أبحثُ عنّي في الدّروب الضّائِعات، في دجلة، في الرّصافة، في الجسر، في عيونِ المَها، في درب الورّاقين، في اللّيالي المُقمِرة، وفيّ... مُتشابِهان نحن، نبحثُ عن أنفسِنا فينا، عن تلك النّجوم الّتي تساقطتْ يومَ ولادتَينا من أجل أنْ تبعثَ هذا الجوّ الأسطوريّ الّذي يُحيط بِنا معًا، أنا سليل هذه الفاتنة القبيحة، اللّعوب الرّشيدة، المِغناج التّقيّة، والقديمة الجديدة، أنا نِتاجُ أحرفها الّتي خَطّتْ مجدًا سيظلّ خالِدًا، يخبو؟ نعم. يُصيبه النّسيان؟ نعم. يضعُف كأنْ لم يُوجد؟ نعم، ولكنّه لا يموت، أنا لا أموت يا بغداد. أنا لا أموت، وإنْ نَكِر النّاس فضلي، وإنْ ثقبَ الحسدُ والحقد أفئِدتَهم فخاضوا فِيّ مع الخائضين، وطمسوا ما فعلتُ، لكنّني أكتبُ لها، لعينيكِ اللّتَين خبا نورُهما لكنّه ما انطفأ، وأعيشُ من أجلها، من أجل هذا المجد؛ هذه الكأس، الّتي يدعونها كأسَ الخلود!!

أمسِ رأيتُ الحاوي، يُخرج الأفعى من الصّندوق بالنّغم، إنّه ماهرٌ لكنّه مُخادِع. إنّه فَنّان ولكنّه كاذب. إنّه يُعجِب النّاس ولكنّه لا يُعجبني. إنّهم حُواة هذا الزّمان يا بغداد، لا يُريدون لأيّ نجمٍ أنْ يسطع، ولا لأيّ حقيقةٍ أنّ تظهر، يتّهمونني بكلّ شنيع، وما أزرتْ بهم إلاّ همّتي، وما كانوا إلاّ فأرة مأرب، لمّا أزاحوا الحجر عن قلوبهم انداح طوفان البغضاء ليُهلِكني، ولكنّه لم يُهلِكْ سِواهم!

وإنّها بغداد، حاضرة الدّنيا فيما غَبَر، وإنّني أحبّها على عِلاّتها، ولا أصبر على فراقها مع أنّ أهلَها قالُون لي، ولقد قال الشّافعيّ ليونس بن عبد الأعلى: "يا

يونس، دخلتَ بغداد؟". فقال: "لا". فقال: "ما رأيتَ الدّنيا". ولقد صدق، ولكنّ هذا كان فيما مضى، أمّا اليوم فعاثتْ فيها الفِئران، وجاستْ خلالَها الجُرذان، وقلّ ماؤها، وما ماؤها إلاّ علماؤها، وذابَ في فِجاج الأرض أخيارُها، وعدتْ عليها أشرارُها، وغابَ في البؤس سَعدُها، وغار في الحُزنِ فرَحُها، وقبلتْ بُشذّاذ الأرض بعدَ أنْ كانتْ مُتمنّعة، وباللّصوص بعد أنْ كانتْ مُتحصّنة، وبالزُّناة الخَطَأة بعد أنْ كانتْ عفيفة، وإنّها كما قال السّائل الأوّل: "جميلةٌ لا تردّ يدَ لامِس".

وإنّ بغداد كانتْ وقفًا فصارتْ حتفًا، وإنّني كنتُ لا أرى فيها رأي الفُضَيل بن عِياض، وكنتُ أتطيّر به وبقوله؛ فإنّ بغداد حبيبةٌ، والحبيبةُ تملك على المُحِبّ العقل والقول، ولكنّني مع مرور الأيّام وتمادي البين وانقطِاع الوصل وانبِتات العشق رأيتُ الفُضَيل مُحِقًّا حين حَثّ على الخروج منها، وكَرِه الإقامةَ بها، وأبطلَ الصّلاة فيها، وجعل مُؤذّنيها أخبثَ أهلها، لأنّها أرضٌ غَصْبٌ! ولقد قال سفيان الثّوري من قبلُ: "المُتعبّد في بغداد كالمُتعبّدِ في الكنيف". ولكنّها رغم ما قالوه أو سيقولونه، ستظلّ حبيبة، وإنّني وإيّاها كما قال الشّافعيّ: "ما دخلتُ بلدًا قَطّ إلاّ عَدَدْتُه سَفَرًا، إلاّ بغداد فإنّني حينَ دخلتُها عددتُها وطنًا". وكما قال صاحبُ بُثينة:

ومـــا زادَهـــا الواشـــونَ إلاّ كرامـــةً

عـــليّ، ومـــا زالـــتْ مَحبّتهـــا عِنـــدي

وإنّها مع محبّتي لها، ليصدقُ فيها قول القائل: "إنّها أسرعُ انقِلابًا بأهلها من الوتد الحديد في الأرضِ الرّخوة". ولقد رأيتُ في منامي وأنا صبيٌّ أتعثّر في الطّرقاتِ مَلكَين، هبطا من السّماء حتّى صارا فوق بغداد، فقال الأوّل للثّاني:

"اقلبْها فقد حَقّ القولُ عليها". فسمعتُ الثّاني يقول: "كيفَ أقلبُها وفيها خُتِمت الليلةَ خمسةُ آلافِ خَتْمة؟".

ثُمّ إنّه ما نال منّي هُراء المُتعالِمين إلاّ كما نال نُباح الكلب من المُرتحِل، وما ضَرّني أنْ نَكِرني النّاس في زماني هذا، فإنّ لي أزمانًا آتية يذكروننني ولا يُنكروننني، ويعرفون فضلي ولا يجحدونه، ولقد قلت: "إنّ العلوم تَغور ثُمّ تفور، تغور في زمانٍ وتفور في زمان، بمنزلة النّبات أو عيون المِياه، ينتقل من قومٍ إلى قومٍ، ومن موضعٍ إلى موضع".

(2)
دَربُ الفالوذج

"كم معك من القُرآن يا ولد؟". سألني الشّيخ أبو زرعة وقد سقط حاجِباه الأبيضان على عينَيه، وراحَ ينظر إليّ من تحتهما، رافِعًا ذقنه إلى الأعلى، يكادُ لا يرى. "القرآن كلّه" أجبتُه. شهق الشّيخ. وهتف: "صلّى الله على مُحمّد... يا مُحمّاااد". ومَطّ الكلمة الأخيرة غيرَ مُصدّق، وأعادَ بنبرةٍ ترتعشُ بالدّهشة: "القرآن كلّه!!". "نعم، يا سيّدي، حفظتُ نصفَه على يد جدّي، وابتدأتُ ذلك وأنا في السّادسة، فلمّا توفّاه الله، حفظتُ النّصفَ الثّاني على يد أبي". هَزّ الشيخُ رأسَه من جديدٍ، وهتف: "وكم مضى من عُمُرك؟". "ثمانٍ". "وهل معكَ غيرُ القرآن؟". "أحبُّ الحلوى"، أجبتُه. ضيّقَ عينَيه، وبدا أنّه لا يرى مع كثافة حاجبَيه: "وما شأنُ الحلوى؟". "إنّها كانتْ مكافأة أبي على إتقاني الخَطّ". "وهل تفعل؟". "بالطّبع يا سيّدي". وضع رُقعةً خاليةً على المسند الخشبيّ الّذي يضع عليه كُتُب الحديث، ويتّكِئ عليه أحيانًا، ويأخذ فوقه غفوةً قصيرةً أحيانًا أخرى، وله فيه مآربُ أخرى، وغمسَ الرّيشة الّتي عن جنبه بالدّواة، ومدّ الرّقعة مع المسند الخشبيّ إليّ، وأشارَ بإصبعه: "اكتبْ... اكتبْ...". "ماذا أكتب؟". "ما شِئتَ مِمّا تحفظ". "من القرآن أم من غيره؟". "وتحفظُ غير القرآن؟". "أحفظُ مقامات الهمذاني عن ظهر قلب، ومُختصرًا في النّحو، ومُختصرًا في الفقه، وأحفظُ

الكُرّاس الأوّل من ديوان المُتنبّي". شَهَقَ الشّيخ من جديد، اهتزّ طربًا هذه المرّة، مال جنباه يمنةً ويسرةً من ذلك، وكادت دواة الحبر تسقط في اهتِزازه وتنسكب مُلوّثةً الأرض لولا أنّه تداركَ الموقف، وقال: "الخيار لك". كتبتُ له بخطّ الثّلث، قولَ المتنبّي:

أريـــدُ مِـــن زمنـــي ذا أنْ يُبلّغنـــي

مـــا لـــيسَ يبلغُـــه مـــن نفـــسِه الـــزّمنُ

ومددتُ الرّقعة له، قرأ البيت، وصاح من الإعجاب: "بديع، ولكنْ هل هذا البيت في الكُرّاس الأوّل من ديوان المتنبّي؟". "لا، ولكنّني أحفظه". "وما الّذي أعجبكَ فيه حتّى تحفظه قبلَ غيره؟". "إنّه أنا". ضيّق الشّيخ من جديدٍ عينَيه، ورفع رأسه قليلاً، فبانت لحيته من زاوية النّظر هذه كاملة، وراحَ يعبثُ بها بأطراف أصابعه: "امم... غفرتُ لك". سألتُه: "وهل أخطأتُ يا سيّدي؟". "أنسيت؟". أجبتُه حاثًّا إيّاه على أنْ يُذكّرني: "ولقد عَهِدْنا إلى آدمُ من قبلُ فنسي". ضحك، وقال: "تأخّركَ عن الدّرس المرّة الفائتة". "وأنتَ يا شيخ أما نسيتَ؟". ضحك. وقال: "نبدأ اليوم؟". "نعم". "لن نبدأ بعلم الحديث، بل بالحديث". "أنتَ أستاذي وسيّدي". "العلوم تأتي بعدَ الحفظ". "أنا طوع يدَيك".

ولدتُ في هذه الدّار عام 557 للهجرة، دارٌ مُنيفةٌ، دار جدّي، في درب الفالوذج في بغداد، دربٌ أشبهُ بالدّنيا، والدّنيا ليستْ لونًا واحِدًا، إنّها من أصنافٍ شَتّى، وفيه درجتُ، وركضتُ، وصِحتُ، وناديتُ على أمّي أنْ تنتظرني وهي تسبقني إلى دكاكين الخيّاطين والبزّازين والصّفّارين.

بيتُنا بيتُ عِلم. لن أقولَ: إنّني تعلّمتُ كلّ هذا وحدي، ولن أقول إنّ أبي كان سَقّاءً وكنتُ أنا فقيرًا، ولن أقولَ إنّني يتيم وإنّ أُمّي كانت تملأ البيت صِياحًا في

الصّباح والمساء وهي تتشاجر مع جدّتي، ولن أقول إنّني كنتُ أصيدُ السّمكَ من نهر دِجلة من أجل أنْ أُطعِم أُمّي وأقيها شَظَفَ العيش، ولن أقول إنّني كنتُ أبيتُ في دار الوَرّاقين من أجل أنْ أقرأ كلّ ما كتبه الكُتّاب، وما خَطّه النَسّاخون في العلوم كلّها لأنّي لم أكنْ أملكُ ثمنَ كتابٍ واحد... لن أقول شيئًا من هذا، بل سأقول إنّ جدّي كان عالِمًا بالتّاريخ، وإنّ أبي كان عالِمًا بالحديث، وإنّ أُمّي كانتْ حنونةً تُحبّ العِلم، وإنّني سرقتُ منهم قلوبَهم، فخصّوني بالعِناية والتّعليم، وجئتُ لهم على قَدَر!

وبغداد؟ حاضرةُ الدُّنيا، فيها كلّ شيء، وفيها من كلّ شيءٍ شيءٌ، ليسَ يفوقُها في الحواضر شيء، وحكاياتُها لا تنفَد، وقِصصها لا تنتهي، وأيّامها لا تُعدّ، وحورايها لا تُنسَى، وأسواقُها تتفرّد، وباعتُها أظرفُ الباعة، ولصوصُها كُثر، وشُطّارها غلبوا الخليفة على أمره، وماؤها أعذبُ ماء، فهو من كوثر دجلة، ودجلة من الجنّة، والجنّة جَنّات، وأنا؟ عاشقٌ مُتيّم.

كان درسي مع الشّيخ (أبي زرعة) في الحديث ثلاثةَ أيّام في الأسبوع، بدأ بالبُخاريّ، فكان يشرح لي الباب، وأنا أحفظُ ما شرح، المتن والسّند، وكانتْ أيّام الأسبوع الثّلاثة الأخرى لإتمام هذه المهمّة، وكان الشّيخ يُدرّس في المدرسة النّظّاميّة، وهي يومئذٍ تعجّ بالعُلماء والأساتيذ وأهل الرّأي، وفيهم الجهابذة الّذين طلبَ علمَهم أهلُ الحواضِر الأخرى في القاهرة أو حلب أو دمشق أو تونس. وكان يُحرّكهم كما يُحرّك كلَّ إنسانٍ المالُ، المالُ الّذي يرتق جيوبهم المثقوبة، ويكفل لهم حياةً طيّبة، ولم يُزرِ ذلك بالدّين ولا بالتّقوى، فإنّ العلماء بشر، ولهم مِعدٌ تجوع، وأبدانٌ تمرض، وهم محتاجون لدرئهما إلى المال.

كان بيتُنا في درب الفالوذج بعيدًا عن المدرسة النّظاميّة، وكان عليّ أنْ أعبر المسافة الطّويلة في الفجر لكي ألحق بالدّرس، وكان في ذلك مخاطرة كبيرة، إذ ينتشر اللّصوص في هذا الوقت، وأنا صبيٌّ صغير، فكنتُ لأتغلّب على ذلك أصلّي الفجر في المسجد الّذي بِجوار بيتنا، وأقرأ على شيخه نصيبَ اليوم مِمّا أحفظ، وعليّ إذا انبلجَ الفجر أنْ ألحقَ بالشّيخ في المدرسة، فأركضُ، ولا أصلُ إليه إلاّ لاهِثًا، فقال لأبي: "إنّه يأتيني وأنفاسُه تتقطّع، فهلاّ قرّبتَ مزارَكَ من مزارنا؟". ولم يكنْ أبي ليترك دار جدّي، ولم أكنْ أنا لأتركَ درب الفالوذج الّذي عاشَ فِيّ، فاقترحَ أبي عليه أنْ يأتيه في مسجد التّوابين الّذي يقع في منتصف المسافة بيننا وبينه، على أنْ يُجريَ له زيادةً في المال على احتمال المشقّة في ركوب الدّابة من بيت الشّيخ إلى هذا المسجد، وسيّر أبي معه كذلك حَمّارًا يأتي به من بيته ويُعيده إليه، ولولا الفضل الّذي بينهما والودّ لَما قَبِل، ولكنّه قال لأبي: "إنّ ابنَك هذا نابغة، وإنّ تعليمه واجبٌ، وأنا أقبلُ لصحبتي لك". وظلّ الشّيخ معي عامًا وشهرَين يُقرِئني البُخاريّ حتّى حفظتُه، ولمّا بدأنا بعلوم الحديث كان قد مات، فبكيناه أنا وأبي، وصلّى عليه خلقٌ كثير، ودُفِنَ في المقبرة الورديّة.

ظلّتْ ذكرى الشّيخ في ذهنِ الطّفل الّذي كنتُه مرتبطةً بباب الفتن الّذي قرأتُه عليه في البُخاريّ، وكان أكثر حديثَين يطرقان بالي، هما: قوله عليه الصّلاة والسّلام: "ستكونُ فِتَن، القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من السّاعي، مَنْ تَشرَّف لها تَستشرِفْه، فمَن وجد فيها ملجأ، أو مَعاذًا، فَلْيَعُذْ به". وقوله: "لا تقومُ السّاعة حتّى يمرَّ الرّجلُ بِقَبر الرّجل فيقول: يا ليتَني مكانَه". بل إنّني كنتُ أُردّدهما في اليوم أكثر من مرّةٍ وأنا أقرأ أو أحفظ أو أتابع الدّروس، أو أمشي في الطّرقات، وكانا يبرزان لي من زاوية كلّ

كتاب، وزاوية كلّ درب. في الجمعة الّتي تلتْ موتَه، كنتُ عندَ شيخٍ آخر أتلقّى علوم الحديث.

ماتَ أبو زرعة، ولقد كان عَلَمًا من أعلام بغداد، جاورها - ولم يقبل على جِوارها غيرَها- مدّة أربعةٍ وثمانين عامًا حتّى رحل، وكنتُ أنا أصغرَ تلامذته، وكان هو أكبرَ شُيُوخي، وما حفظتُه عنه ظلّ معي إلى أنْ رحلتُ أنا كذلك.

(3)
وَجْها بغداد

أخذتْني أمّي معها إلى سوق الصَّفّارين، محلاّت كثيرة، تتدلّى من أمام واجهاتها أواني النّحاس الصّفراء، كانتْ تلمع على ضوء أشعّة الشّمس، بريقُها ربّما كان يجذب النّساء من جهتَين: يُشبه الذّهب؛ والذّهب يُقيم في قلوب النّساء. ثُمّ فيه كل ما تحتاجه المرأة من أوانٍ نحاسيّة لمطبخها، ولقد رأيتُ القيّم في المدرسة النّظاميّة فيما بعدُ يبعثُ مَنْ يأتي بأكواز الماء ليشتريها من هناك.

خرجْنا من درب الفالوذَج حيثُ نسكن، ودربُنا واسعٌ قليلاً، ويمتدّ في العمق، وعلى جانبيه البيوتُ الّتي تختفي خلفَ كثيرٍ من الدّكاكين، كان هناك دُكّان يبيع الجِرار والقُلَل، وأقدم جرّةٍ في بيتنا اشتراها جَدّي منه، لو نزلتُ في مائها لغرقت، وكانت الجِرار والقُلَل تجعل الماء في الصّيف بارِدًا. وكان هناك دُكّان العتّابيّة وهو دُكّان ثِياب، تُباع فيه الثّياب العتّابيّة؛ وهي مصنوعةً من حريرٍ وقُطن، وذات ألوانٍ متعدّدةٍ زاهية، وكان أكثر زبائنه من النّساء، ومنه كانت تُجهّز العَروس. وكان هناك غيرُ دُكّان للحبوب، ومثلها للأعشاب، والتّوابل وكانتْ رخيصةً الرّطل بدينار، وكانتْ تأتي من الهند، وكان كلّ دُكّانٍ له سقيفةٌ من الأعلى تُشبه الشّرفة لكنْ من دون أنْ يكون فيها مكانٌ للجلوس، وكانت السّقيفة أو المِظلّة هذه ترتكز على سقالات من الخشب، بارزة للنّاظر إليها، وكانتْ تتدلّى من تلك السّقالات مَشابكُ يعرض فيها صاحب الدُّكّان بعضَ بِضاعته لتكون مَرئيّة للشّارين. وكان هناك أيضًا باعة العَرَبات المَجرورة، يبيعون على عَرَباتهم الرُّمّان

أو البِطّيخ أو الأشنان. أمّا أشهر تلك الدّكاكين وعليه سُمّي دربُنا، فكان دُكّان أبي سليمان الحَلَوانيّ الّذي كان يبيع فيه حلوى الفالوذج، واشتُهِر بها، وكانَ النّاس يأتونه من أماكنَ شتّى، وكان عنده صِبيةٌ يُساعدونه لكثرةِ مُرتاديه، وكثيرًا ما أكلتُ حلواه، وكان أبو سليمان كلّما اشتريتُ من عنده واحدةً يقول: "حَلْوايَ تُظهِر الكرش، وتزيد السِّمَن، إلاّ معك، كلّما أكلتَ منها زادَ نُحولك، وتقصّفتْ ساقاك كأنّهما ساقا سَعدان". ويضحك مع أنّ دُعابته لم تكنْ تُعجبني.

والفالوذَج، كما وصفها سفيان الثّوري: "لُبَابُ الْبُرِّ بِلُعَابِ النَّحْلِ بِخَالِصِ السَّمْنِ". وكنتُ أجلسُ عند الحَلَوانيّ، آكلُها أمام دُكّانه، فيُحدّثني أحاديثَها، فيقول: جلس الغاضريّ يأكل الفالوذَج على مائدة يزيد بن عبد الملك الأمويّ فجعل الغاضريّ يأكل ويُسرع، فقال يزيد: ارْفِقْ بنفسك فإنّ الإكثار منه يقتل. فقال الغاضريّ: منزلي على طريق المقابر". ويُطلِق أبو سليمان ضحكةً لها دويّ، وأضحك معه، وزَبَدُ الحلواء يسيل من زوايا فمي، فلقد كنتُ ألتهم لُقَمًا كبيرةً منها في فمٍ ذي بابٍ صغير وأسنانٍ مُدبّبة. ثُمّ يقصّ عليّ خبرًا آخر، فيقول: "دخل أعرابيٌّ على عبد الملكِ بنِ مروانَ وهو يأكل الفالوذَج. فَقَالَ عبد الملك: يا بنَ عمّ ادْنُ فَكُلْ من هذا الفالوذَج فإنّه يزيد فِي الدّماغ. قال: إنْ كان كما يقولُ أميرُ المُؤمنين فينبغي أن يكون رأسُه مثلَ رأسِ البغل". وقد زَعم ابنُ السّمّاك أنّها سيّدة الحَلْواء، وزعم آخَرون أنّها حلوى الأغنياء، وكُنّا نأكلها ولم نكنْ منهم.

اشترتْ أُمّي من سوق الصّفّارين طستًا وأكوابًا وملاعق، وكانتْ تُجادل الباعة وهي تُغطّي رأسَها ووجهها بخمار، وكنتُ أستمتع بمجادلتها، وعُدنا، فناشدْتُها الله والرَّحِم أنْ تشتري لي حلوى الفالوذج من دُكّان أبي سُليمان، فنهرتْني: "لن تأكلها كلّ يومٍ". فأشرتُ إلى جسدي النّحيل الّذي لو هبّتْ رِيحٌ